

كلمتنا الخدعة اللذيذة وسحر الصورة!



الاتصال البصري أقدم ما عرفه الإنسان من وسائل التواصل، وقد عبّر أجدادنا الأوائل عن أفكارهم بالرسوم، في بداية عصر التدوين قبل نحو عشرة الاف عام، وظلت الصورة، الثابتة في عصر الطباعة والصحافة، توصف بأنها تساوي ألف كلمة، أما عندما تحركت الصورة ونطقت فلا أحد يستطيع ان يقدر معجزتها وتأثيرها وعمقها!

السينما لغة القرن العشرين وما بعده، سميت ب (الفن السابع) لأنها دمجت الإبداع البشري في فنون الرواية والشعر والموسيقى والمسرح والرقص والغناء والرسم، وقدمت رسالة بصرية ساحرة، ذات مضامين سياسية ودينية وأخلاقية وعلمية واجتماعية مذهلة، وصنعت عقول أجيال من البشر، المشبعين بقيم الحداثة والإبداع والتنوير والعقلانية والدهشة والابتكار!

خدعة لذيدة فرضت (ظل الصورة) على عقول الناس، فكانت تبدو أكثر صدقاً من الصورة الحقيقية نفسها، وجمعت في عالم واحد بين الفن والأدب والجمال والإعلام والصناعة والتجارة والتقنية، فاختصرت الحضارة الجديدة في شاشة واحدة! بدأت السينما صامتة بالأفلام التسجيلية الوثائقية، ثم قفزت في عالم الخيال، في عشرينيات القرن الماضي، وأضافت الصوت إلى جانب الصورة والحركة واللون والموسيقى، وظلت ثمّة شخصيات رائدة غير قابلة للنسيان مثل روبرت وين، مايكل مور، جورج ميليه، ديفيد غريفيث، وتشارلي تشابلن، وغيرهم من صنّاع الدهشة، في مدارس السينما الواقعية والتعبيرية والسيرالية والخيالية!

ترجمت كلمة (CINMA) إلى العربية بكلمة (الخيالة) لأنها صورة خيالية عجيبة، تبدو أكثر بريقاً واشعاعاً من الصورة الحقيقية، صبغت الواقع بجمالية الموسيقى والضوء والديكور والأزياء، فضلاً عن الأداء التمثيلي المبهر، ينتظمها جميعاً خيط من الحدث القصصي الملحمي، فأصبح ظل الواقع شاحماً أمام الشاشة المضيئة الساطعة!

قرن كامل هيمنت خلاله السينما على العقول وغيّرت النفوس وعذلت السلوك، وطرحت تساؤلات وجودية عميقة حول تأثيرات الصورة السينمائية في المعتقدات والأفكار والأخلاق والقيم، لكن هذه الخدعة الساحرة جرفت في طريفها الكثير من الموانع، وشقّت طريقها نحو القرن الحادي والعشرين، رغم تحديات الحضارة الرقمية! لا تبدو السينما مهددة بالانقراض مثل الوسائط الورقية كالكتاب والصحيفة، فقد اندمجت بسهولة في الوسائط المتعددة التفاعلية (MULTI-MEDIA) وستكون السينما الرقمية أكثر انتشاراً، وربما اوسع تأثيراً، خلال القرن الحالي!

ستظل السينما ساحرة تخدع الملايين لعدة عقود، وربما قرون مقبله، وسوف تغيّر، مثلها فعلت خلال قرن من التاريخ المتسارع، مصائر وعادات وأخلاق الكثير من البشر!

د محمد فليحي